محسن إبراهيم

الحركة القومية كما نفهمُها





منشورات الطليعة تونس 1989

دراسات في القومية العربية

الحركة القومية
كما نفهمها

محسن ابراهيم

المحتــوى



« مدخل للبحث »

قد يبدو الحديث مجددا عن الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا : طبيعتها ومميزاتها ، حديثا معادا مكرورا ، الا انه ما تزال هناك في الواقع جملة مسائل بحاجة الى ان تخوض فيها الاقلام اكثر واكثر ، لتتخذ بوضوح ابعاد هذه الحركة القومية التي تجتاح اليوم اقطار اسيا وافريقيا وعددا اخر من بلدان العالم لتقدم للقومية فهما اخر هو في الواقع جديد كل الجدة . ليس كافيا ان نقول بان الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا تختلف طبيعة واهدافا عما عرفه العالم في حقبة من تاريخه الحديث من حركات قومية ، ولا تكفي نعوت « الانسانية » و « التقدمية » و« الاشتراكية » الملتصقة بالحركة القومية كما تفهمها الشعوب « الجديدة » لتدخل الاطمئنان الى قلوب الذين ينظرون بحذر لمستقبل هذه الحركة .

وراء الالفاظ والنعوت والشعارات يجب ان نستقصي خط سير هذه الحركة ، الفكري والواقعي العملي ، لنكتشف مقدار عمق الصلة بينه وبين الشعارات والمبادىء ولنكتشف بالتالي الضمانة الفكرية والعملية لاستمرار الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا في اطارها الانساني وضمن بواعثها التقدمية ، دونما تعرض لنكسات .

وفي هذا المجال يورد البعض عددا من التساؤلات الهامة حول الحركة القومية بصيغتها الانسانية والتقدمية الجديدة ، والتي كان لنا كعرب وللشعوب التي تشاركنا وحدة الكفاح والمصير شرف حمل رايتها .



حول انسانية القومية

هناك من يقول بان الطابع الانساني للحركة هو حتى الآن طابع سلبي فرضته علينا المرحلة الكفاحية التي نعيشها من حيث كوننا كأمة وكشعوب اسيوية افريقية تتحمل حاليا القسط الاوفر من مساوىء الظلم الانساني المتجسد في الاستعمار ومحاولات السيطرة وبسط النفوذ وتكريس وضع طبقي بين أمم العالم يستهدف منع الشعوب المتخلفة من التحرر والانطلاق .

وجهة النظر هذه تريد ان تقول بان صفة « الانسانية » التي اكتسبتها حركتنا القومية كعرب لا تصدر في الواقع الا عن رد فعل قومي يستهدف فقط ازالة الظلم اللاحق بنا كأمة ، وان انسانيتنا في طرح القضية القومية تنبعث في الواقع لا من مبادىء ايجابية ضربت جذورها في اعماق فهمنا القومي بل من مصالحنا القومية « الضيقة » الملتقية مرحليا مع الفهم الانساني لقضايا الشعوب وقضية الانسان !

وتريد وجهة النظر هذه تبعا لذلك ان تؤكد بان الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا ليست بعيدة عن مزالق الانحراف والتردي في اشكال الانعزال والتعصب ومحاولات السيطرة تلك التي ارتدتها الحركة القومية في بعض حقبات التاريخ ، وبانه ان لم يكن هناك اليوم تناقض واضح بين الولاء لمصالح الامة وقضاياها وبين الولاء الانساني باعتبار قضيتنا القومية مطروحة « مرحليا » ضمن خط انساني عام ، الا أن مثل هذا التناقض ممكن الوقوع بعد اجتيازنا لهذه

القضية التي يؤكد عليها البعض هنا هي قضية ازدواج الولاء ، الولاء القومي والولاء الانساني • والسؤال المطروح هو : هل تحتوي الحركة القومية بصيغتها الانسانية التقدمية الحديثة على نفي عميق لهذا الازدواج ام ان بذور التناقض بين الولاءين او فلنقل بذور الردة الى الانعزال والتعصب

ما تزال قائمة في صلب الحركة القومية حتى في البلدان الناهضة حديثا ، والتي تفخر اليوم بانها تخطت اشكالا للقومية اثبت التاريخ ضيق فهمها لهذا الواقع الموضوعي الذي يقسم العالم الى وحدات مستقلة هي الامم •

الذين يوردون هذه الملاحظات يقولون : لا شك في ان الحركة القومية بصيغتها الآسيوية والافريقية ـ اذا صح التعبير ـ تلتزم اليوم موقفا هو في طابعه العام موقف انساني ، ولكنهم يسألون : هل يحتوي هذا الموقف ـ الذي قد يكون محدودا بحدود القضايا القومية الخاصة بكل امة ـ كل ضمانات الاستمرار في الخط الانساني ؟ وهم لا يسألون بقصد مجرد يستهدف الحصول على جواب ، بل ان السؤال مطروح بصيغة شك • شك في ان تكون الحركة القومية حتى بصيغتها الآسيوية لافريقية ، قد اكتسبت العمق الانساني الذي يجعل منها نموذجا صالحا لتنظيم المجتمع الدولي على أسس العدالة والتعاون والسلام • وشك في ان تكون انسانيتنا حتى الآن مجرد موقف يرفض الظلم الواقع علينا كأمة دون ان يتحول الى موقف ايجابي غير محصور ضمن نطاقنا القومي •

هل اذاب الطابع الانساني للحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا جميع الترسبات التي ورثتها القومية عبر تطورها التاريخي منذ ان استيقظت أوربا في القرون الاخيرة لتكتسحها حركة قومية غيرت معالم خارطتها وانظمة الحكم والحياة فيها ؟

هل تفوق الفهم الانساني للقومية في البلدان «الجديدة» على كل ما عداه من مفاهيم قومية ضيقة ؟ على هذه الاسئلة يجيب البعض : لا ضمانة حتى الآن !

هذا الاتهام الذي يوجه لانسانية الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا اتهام ، رغم رفضنا له ، يستحق ان تقف عنده طويلا لتحليله والرد عليه من خلال تطهير البعد الانساني في الحركة القومية وايضاح الضمانة التي تدفعنا الى القول بان الاتجاه الانساني قد اصبح عنصرا مكونا واصيلا في الحركة القومية كما نفهمها نحن •

وحول تقدمية الحركة القومية

وظلال الشك التي يرسمها البعض حولانسانية الحركة القومية يحاول البعض الآخر رسمها حول تقدمية الحركة القوميه اساسا •

الى أي حد نستطيع ان نضمن استمرار الحركة القومية بصيغتها الحديثة في الاتجاه التقدمي العام ؟

الذين يتساءلون يوافقون على ان الحركة القومية من حيث هي حركة وحدة وتحرر للامم المجزأة والمستعمرة

والمتخلفة ، تلبي حاجة تقدمية يفرضها منطق التاريخ والتطور ولكنهم يشككون في أن تكون هذه الحركة القومية قد اكتسبت فعلا البعد الاجتماعي التقدمي الذي يضمن استمرار تقدميتها وفعاليتها في انهاض هذه الامم والشعوب •

بل ان هناك من يعتقد بان النفس التقدمي لهذه الحركة القومية لم يستطع حتى الآن ان يتجاوز فكرة التحرر القومي من الاستعمار واشكال السيطرة والنفوذ والتحرر داخليا من المرتبطين بهذا النفوذ او ذلك الاستعمار •

فالحركة القومية لم تصل بعد في رأي هؤلاء الى الحد الذي تتبلور معه وتتضح ابعادها الاجتماعية التقدمية • وان بدا نجاحها واضحا وفعاليتها مؤكدة في مرحلة التوحيد والتحرير الا ان هذا النجاح لم يتأكد بعد بنفس النسبة في مرحلة البناء وتحقيق التقدم الكبير والنهضة الواسعة •

الرأي هذا يؤكد بان الحركة القومية لم تتجوهر كلها بعد بجوهر واحد يربط بشكل عضوي بين كافة جوانبها التقدمية وبان ارتباط الحركة القومية بالاتجاه التقدمي الاجتماعي ليس بعد اصيلا الى الحد الذي نستطيع معه الادعاء بان هذه الحركة قد وجدت تقدميتها •

واسئلة عديدة تطرح حول تقدمية الحركة القومية وكلها تحاول الوصول الى نتيجة واحدة ، الى القول بأن

الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا ما تزال في مرحلة الرفض الاولي للتخلف والجحود والظلم الاجتمعي ، وفي مرحلة التصور « الرومانطيقي » لنماذج اجتماعية تقدمية لم تتحدد قواعدها « علميا » ولم تنصهر في اتجاه عميق الجذور يرى الامور ، كل الامور ، بوضوح تام .

وحول القومية والاشتراكية

ويتناول البعض فكرة الربط بين الحركة القومية وبين الاتجاه الاشتراكي كصيغة تقدمية «دارجة» لدفع التطور البشري في البلدان المتخلفة فيقولون بان الربط هو حتى الآن ربط مصطنع تتراكم فيه المفاهيم القومية والاتجاهات الاشتراكية دونما ترابط عضوي واقعي وتنسيق حي ، وبان الازدواج في حركة نهضة الشعوب المتخلفة ما زال قائما ، ازدواج بين القومية والاشتراكية ، فهناك ، في رأي البعض ، حتى الآن حركة قومية تحاول ان تكون تقدمية او فلنقل اشتراكية ، الا انه ليس هناك لقاء عميق تولد بفعله حركة قومية اشتراكية بالمعنى العضوي للحركة .

ويشير هؤلاء الى ان الحركة القومية ما زالت حتى الان عبارة عن اطار موسع يضم في داخله جيشا من الراغبين في التقدم لا يمكن اعتبارهم جميعا اشتراكيين، والى انالاشتراكية

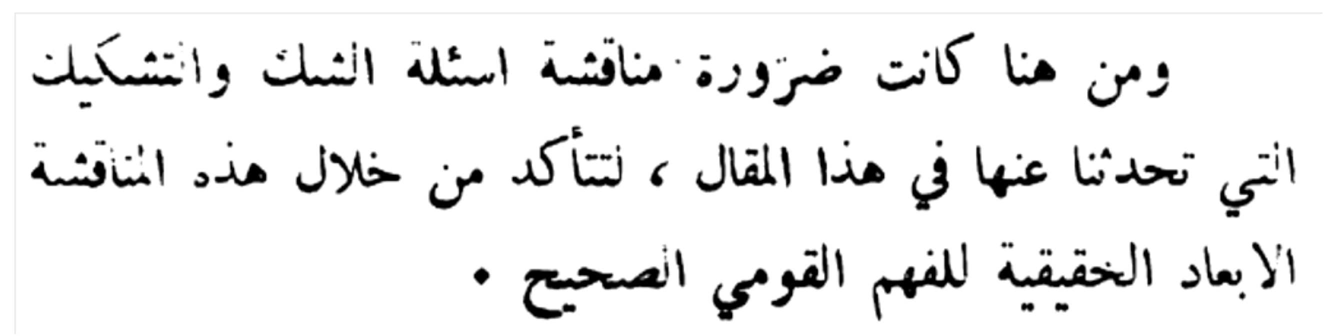
لم تصبح بعد قاعدة عامة في بنيان الحركة القومية • ولذلك - تبعا لهذا القول - فان الالتصاق المفترض بين الحركة القومية وبين الاتجاه الاشتراكي لا يشكل حتى الان الطابع العام او الاتجاه الغالب •

ثم ان البعض يورد عددا من التساؤلات حول اشتراكية القطاع الاشتراكي في الحركة القومية نفسه • هل هو اشتراكي فعلا ام أن الاشتراكية هنا هي كلمة عامة مرادفة للثورية او التقدمية او الراديكالية •

قيمة البحث

التساؤلات هذه التي اوردناها على لسان البعض حول انسانية الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا وحول تقدمية هذه الحركة ومدى تمثيلها لخط تاريخي جديد ، هذه التساؤلات قيمتها في انها تستحثنا على العودة الى بديهياتنا لنتفحصها بدقة ونكسبها مزيدا من العمق •

ان رؤية الواقع الموضوعي الذي تتحرك ضمنه الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا ، وفي بلادنا على الاخص أمر في غاية الاهمية ليكون بالتالي دفع هذه الحركة في الطريق الانساني التقدمي الذي يجب •


ومن هنا كانت ضرورة مناقشة اسئلة الشك والتشكيك التي تحدثنا عنها في هذا المقال ، لنتأكد من خلال هذه المناقشة الابعاد الحقيقية للفهم القومي الصحيح .

انسانية الحركة القومية

هذا البعد الانساني الذي يميز ، في رأينا ، الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا ،والذي يشكل ،في مفهومنا ، عنصر تطور كبير في تاريخ الحركة القومية وفي حاضر البشرية ومستقبلها ، هذا البعد الانساني ما طبيعته ؟ ما عناصره ؟ ما مقدار تحوله الى جوهر اصيل في الحركة القومية الحديثة ؟ وبعد كل هذا ما قيمة الملاحظات النقدية التي يوجهها البعض لانسانية الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا ؟

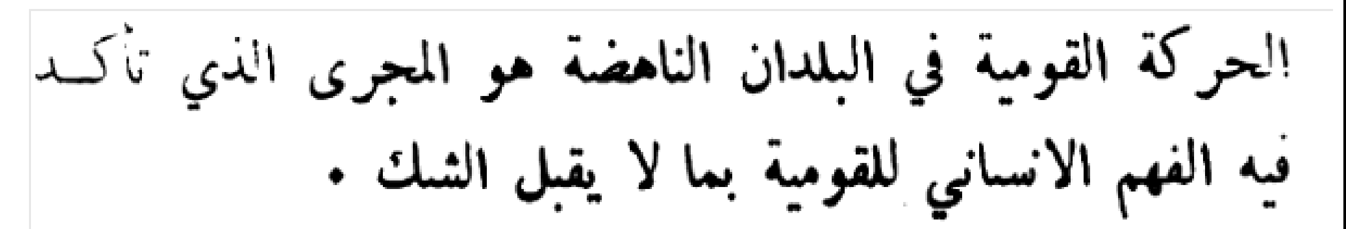
لكي نكون منصفين علينا ان نلاحظ اولا ان الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا ، لم تسلم في بعض مراحل نموها وتطورها من التأثر بمدارس قومية ، عنصرية متحجرة ومنغلقة على نفسها ، وخاصة ابان الفترة التي حققت فيها النازية والفاشية « ازدهارا » مصطنعا وظهرت خلالها بمظهر من القوة اثار اعجاب البعض عندنا فدفعهم الى الهروب من الواقع الضعيف عن طريق اصطناع القوة الفارغة والانتشاء بضجيجها !

لن نتعرض في هذا المجال الى دراسة تاريخ تطور الحركة القومية في جميع البلدان الناهضة حديثا ، يكفينا انتزاع بعض الامثلة من خلال استعراضنا لتاريخ تطور الافكار القومية في الوطن العربي .

الحزب القومي السوري الذي نشأ لينمو في الفتـــرة الاولى من تأسيسه في عدد من بلدان الهلال الخصيب ، حركة مصر الفتاة ، ثم بعض تكتلات الشباب هنا وهناك من بعضـــ الاجزاء العربية والتي حاولت تقليد « ذوي القمصان السوداء» واعجبت بتعاليم هتلر وجذبتها فلسفة القوة عند نيتشه ، كل تلك الظواهر استطاعت ان تجد لنفسها مكانا في الوطن العربي في بعض سنوات تطوره القومي الحديث • وهذا معناه اننـــا لا نستطيع ان ننفي وقوع الحركة القومية في بلادنا وعـــدد من البلدان التي تتشابه اوضاعها مع اوضاعنا ، اثناء بعضـــ مراحل تطورها في بعض الانحرافات التيتعرضت لها الحركة القومية في الغرب خلال تاريخها الطويل •

ولكن السؤال الاساسي الذي يجب ان يطرح يستهدف تحديد مكان ظواهر الانحراف هذه من الوضـــع الاجمالي الذي تعيشه الحركة القومية اليوم في البلدان الناهضة حديثا •

الواقع ان بعض ظواهر الانحرافعن الجوهر الانساني الاصيل الذي نفهم من خلاله الحركة القوميـــــة ما زالت « تعيش » حتى الان •• الا ان الواقع الاجمالي ، الفـــكري والعملي ، للحركة القومية وخط سيرها العام يشـــيران الى تقلص تلك الظواهر وانحصار فاعليتها وتحولها الى مجـــرد رواسب ، والى ان المجرى التاريخي الكبير الذي تسير ضمنه


الحركة القومية في البلدان الناهضة هو المجرى الذي تأكد فيه الفهم الانساني للقومية بما لا يقبل الشك •

هل هو موقف سلبي ؟

الا انه تجدر هنا في الواقع مناقشة وجهة النظر التي لا تريد ان ترى في هذا البعد الانساني الملازم للحركة القومية بصيغتها الاسيوية الافريقية بعدا اصيلا ، بل مجرد موقف سلبي عرضي لا يقدم حلولا انسانية لعالم قسمته الطبيعة الى وحدات قومية مستقلة ، بقدر ما هو موقف يصدر عن مصالح قومية آنية « ضيقة » ومحدود بحدود هذه المصالح •

الواقع أن أنكار الاصالة والايجابية في الموقف الانساني على الحركة القومية الحديثة ، انكار ينطوي في حد ذاته على خطأ كبير •

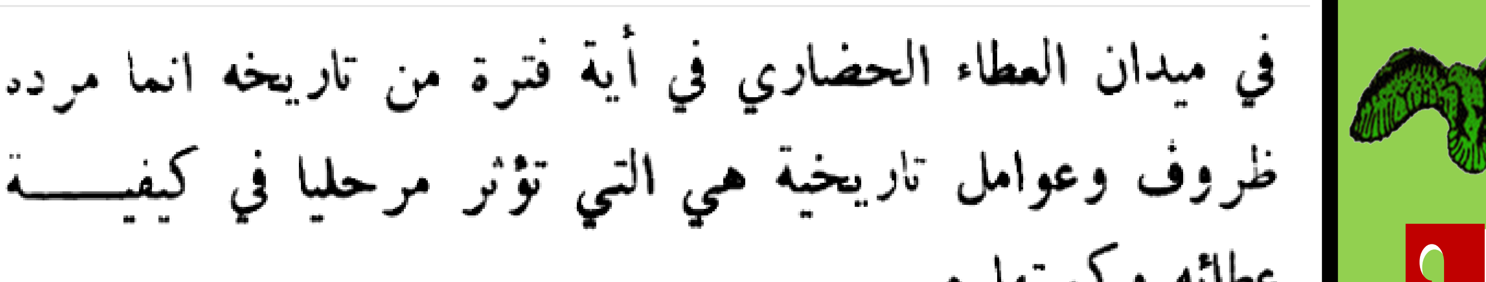
فالحركة القومية في المفهوم الحديث الذي نعتقد ، حركة تقوم على فلسفة انسانية ايجابية عميقة الجذور هي نقيض فلسفة العنصرية والاستعمار والتحجر التي قامت على اساسها حركات قومية اوروبية في فترات من التاريخ •

والحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا استطاعت ان تكتسب خلال تطورها الحديث القاعدة الفكرية الصلبة التي تحميها من مزالق التردي في هوة الاشكال القومية العنصرية المتحجرة •

فكرة المساواة مقابل فكرة الصفوة

مقابل الفلسفة التي تصنف البشرية صنفين : الصفوة ثم الاقوام الوضيعة ، تلك الفلسفة « القومية » التي بلغت اقصى درجات تطرفها على يد هتلر والتي قادت القائلين بها الى كارثة وغذت مظاهر الانحطاط اللا انساني في المجتمع البشري ، مقابل تلك الفلسفة ارتكزت الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا الى فلسفة تؤكد المساواة التامة بين الامم قيمة انسانية مطلقة .

مقابل فكرة الصفوة الارية التي دفعت بهتلر الى القول بانه « اذا صنفنا البشرية فئات ثلاثا : الفئة التي اوجدت الحضارة والفئة التي حافظت عليها والفئة التي قوضت دعائمها ، كان الاري هو الممثل الوحيد للفئة الاولى ، فهو الذي وضع الاسس ورسم مخطط ابرز ما في الانسان ، وهو الذي قدم الحجارة الضخمة للبناء ووضع تصميم ما حققه التقدم البشري اما التنفيذ فقد تولاه كل عرق بنفسه وعلى طريقته الخاصة ، وجاءت المظاهر الخارجية موسومة بطابع المنفذين » مقابل هذه الفكرة « القومية » الهتلرية خرجت الحركة القومية الحديثة في اسيا وافريقيا بفكرة تؤكد قابلية كل جماعة قومية للعطاء ومساهمة في بنيان الحضارة وقيادة العالم نحو وضع افضل ، كما تؤكد بان « قصور » اي شعب



في ميدان العطاء الحضاري في أية فترة من تاريخه انما مرده ظروف وعوامل تاريخية هي التي تؤثر مرحليا في كيفية عطائه وكميتها .

واذن فالحركة القومية بصيغتها الاسيوية الافريقية اتت لتحفر فلسفة قومية انسانية جديدة تهدم خرافة العنصرية وفكرة التفوق « الطبيعي » وتقسيم البشر الى قسمين : صفوة واقوام منحطة .

ومقابل الاستعمار قضية الحرية

ومقابل فلسفة الاستعمار التي ظهرها هتلر بصورتها السافرة الواضحة حين اكد مرارا : «ان الالمان يجافون المنطق ويكذبون التاريخ حين يزعمون بان التوسع على حساب الاخرين عمل غير مشروع ، فحق الشعب باحراز اراض جديدة يستحيل واجبا مقدسا عندما يضيق الاطار الوطنييمن في داخله ويوشكون ان يهلكوا اختناقا . »

مقابل فلسفة الاستعمار هذه التي دخلت في صلب عدد من المدارس القومية الاوروبية ، قامت الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا لتؤكد فلسفة مناقضة هي فلسفة الحرية وتقديس حقوق الشعوب واحترام ارادتها .

ومقابل فلسفة « رسالة التمدن » التي تحاول اليوم

اخفاء حقيقة الاستعمار باسم « تطوير الشعوب المتخلفة ومساعدتها » والتي تعمل على تكريس وضع طبقي عالمي تحتكر الحرية فيه قلة من الدول ، مقابل فلسفة الاستعمار المتجدد انبثقت الحركة القومية بصيغتها الاسيوية الافريقية من خلال المناداة بالحرية لكل الشعوب وجميع الامم •

الحركة القومية في الوطن العربي لا تنشد الحرية للعرب وحدهم بل هي تناضل من اجل الحرية كحالةانسانية عامة يجب ان تعيشها البشرية باجمعها •

الحرية لم تعد هنا مسألة قومية « ضيقة » بل لقد اصبحت الحرية بالنسبة للحركة القومية كما تفهمها الشعوب « الجديدة » حقا انسانيا عاما يجب ان يدفع كل البشر في طريق التمتع به •

الموقف الذي تلتزمه الحركة القومية في بلادنا من حيث مناداتها بحقنا في الحرية وتقرير المصير والسيادة القومية ، ليس مجرد موقف يستهدف تصحيح اوضاعنا فقط ، بل هو موقف يمتد ليشمل الشعوب جميعها والبشرية كلها •

النضال من اجل الحقوق القومية ، والعمل على استكمال اسباب الوحدة والتحرر والسيادة هو بالنسبة لنا نقطة انطلاق لنضال انساني عام يعتبر الحرية قضية غير قابلة للتجزؤ •

هذا الفهم الانساني للقومية هو الذي يضع الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا في الطريق المؤدي الى نفي الازدواج بين القومية والانسانية •

وما التضامن الاسيوي الافريقي بين شعوب القارتين الناهضتين والذي يزداد نموا يوما بعد يوم ، الا دليل على قابلية الحركة القومية في بلدان اسيا وافريقيا لان تكون حركة تحرر وتحرير في آن واحد ، وعلى فاعليتها التقدمية في النطاق الانساني الارحب •

ما الذي يجعلنا كعرب نرى في معركة التحرر الافريقي معركتنا ، وما الذي يجعل الهند ترى ان في قضية الجزائر مسألة تستحق الدعم والتأييد •• انه البعد الانساني الاصيل الذي جعل الحركة القومية منطلق نضال انساني من اجل عالم افضل •

ومقابل الحرب فلسفة السلام

ومقابل الفلسفة التي قدمت الحرب «حلا» دائما الاوضاع العالم القلق المضطرب والتي رأت في الصراع الدموي بين الامم المستقبل الوحيد الذي ينتظر البشرية ، مقابل هذه الفلسفة « القومية » التي ازدهرت في الماضي بشكل سافر وتزدهر اليوم بشكل مقنع ، والتي ترى في مجرد وجود

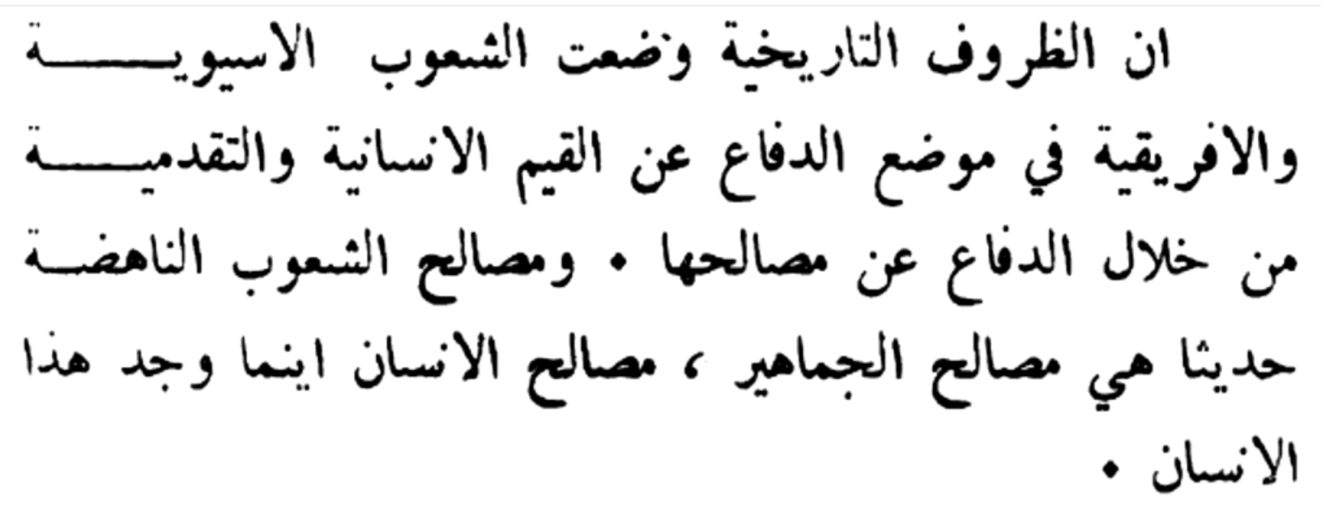
الامم المختلفة باب صراع لا ينتهي ، مقابل هذه الفلسفة الرهيبة ، أكدت الحركة القومية بصيغتها الحديثة فكرة السلام العالمي القائم على العدل والمساواة واحترام السيادة القومية وحق الشعوب في تقرير مصيرها •

الحياة للقوي •• والحق للقوة •• كل تلك الافكار رفضتها الحركة القومية الحديثة وقالت بالسلام وضعا على البشرية ان تتحرك نحوه وبالعدالة حالة يجب ان يدفع العالم نحوها •

تلك هي عناصر البعد الانساني في الحركة القومية كما تفهمها الشعوب الناهضة حديثا : المساواة بين جميع الامم ، الحرية لجميع لامم ، السلام القائم على العدالة في عالم افضل •

ليست انسانية الحركة القومية مجرد موقف سلبي عرضي •• انها فلسفة ايجابية كاملة تقدم للبشرية ملامح مستقبل جديد •

ولا يضير هذه الفلسفة الانسانية ان تكون صادرة عن موقف يريد الدفاع عن مصالح الشعوب الناهضة حديثا • فمصالح الشعوب الناهضة اليوم ليست مصالح الفتح والتوسع ونشدان السيطرة •• انها مصالح التقدم البشري المستندة الى قيم الحرية والمساواة وحقوق البشر الطبيعية •



ان الظروف التاريخية وضعت الشعوب الاسيوية والافريقية في موضع الدفاع عن القيم الانسانية والتقدمية من خلال الدفاع عن مصالحها • ومصالح الشعوب الناهضة حديثا هي مصالح الجماهير ، مصالح الانسان اينما وجد هذا الانسان •

ان عظمة الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا هي انها اكتشفت مصالحها الحقيقية حين حددتها في اطار من القيم الانسانية كانت رائد البشرية في تاريخها الطويل •

الاتجاه التقدمي في الحركة القومية الحديثة

بعد كل ذلك لا بد من مواجهة الملاحظات النقدية الموجهة الى الاتجاه التقدمي الاجتماعي والفكري الذي يقال دائما ان الحركة القومية الحديثة قد ارتبطت به •

الذين يحاكمون تقدمية الحركة القومية في بلادنا ـ وفي المدار الاسيوي الافريقي عموما ـ ثم لايحكمون لها بل عليها ، هؤلاء سواء كانوا « غربيين » او « شرقيين » انما يحاكمون الحركة القومية الحديثة من خلال دراسة تاريخية للاشكال التي اتخذتها الحركة القومية في الغرب والتي هي بمنطق عصرنا ، على الاقل ، اشكال بعيدة عن التقدمية

تمـــــــاما •

ولذلك كان من الضروري ايراد مجموعة من الحقائق التاريخية الهامة حول الحركة القومية عموما والاوروبية منها على وجه التخصيص •

فدراسة الاشكال « اللاتقدمية واللا انسانية » التـــي ترافقت معها الحركة القومية في الغرب امر لا بد منه لفهـــم وجهة النظر التي لا تريد ان تصدق « حكاية » التقدمية فـــي الحركة القومية الحديثة والتي تعتقد ان الحركة القوميـــة ـ أية حركة قومية ـ مرتبطة بطبيعتها بعدد من المفاهيـــم والاتجاهات التي لا يمكن اضفاء صفة التقدمية عليهـــا اطـــلاقـــا !

الصلة الطبيعية

الحركة القومية ، من حيث هي في الاساس ســـعي لتوحيد كيان الامة وتركيز سيادتها ، لم تطرح نفسها عبـــر التاريخ بشكل منفصل عن حركة التطور البشري العامة ،بل تلازمت دوما مع اشكال اجتماعية ومفاهيم وافكار وفلســفات كانت في الواقع بنت البيئة ووليدة المرحلة الزمنية التي عاشها هذا المجتمع او ذاك •

حتى لقد اصبحت الحركة القومية تفهم ، ثم يحكم لها او عليها ، من خلال تلك المفاهيم والافكار والتطورات الاجتماعية التي ترافقت واياها وكان لا بد ان تتفاعل معها وتتأثر بها •

ولذلك فان معظم الملاحظات النقدية التي توجه الى جوهر الحركة القومية وطبيعتها مستمدة في الواقع من هذه الاشكال الفكرية والفلسفية التي « ارتبطت » بها الحركة القومية تاريخيا وفي اوروبا على وجه التحديد •

ذلك أن اوروبا هي التي شهدت المرحلة الاولى من التطور القومي الحديث وهو يحفر خطوطه العميقة في حياة البشرية • ومعظم الذين يؤرخون لهذا التطور القومي الحديث اليوم يعتقدون بان القرن الخامس عشر شهد ملامح اليقظة القومية الاولى في عدد من الاقطار الاوروبية وبان القرون التي تلته وامتدت حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت المدار الزمني الذي تثبتت خلاله شخصية الحركة القومية وتأكدت فعاليتها •

هذه القرون التي كانت قرون ظهور الحركة القومية في اوروبا ونموها وامتدادها كانت في الوقت ذاته قرونا حافلة بتطورات اقتصادية اجتماعية وفكرية عاشتها اوروبا وهي تقفز بحثا عن المستقبل •

وكان من الطبيعي ان تترك هذه التطورات الفكرية والاقتصادية الاجتماعية اثارا بعيدة على الشكل الذي ميز التطور القومي الاوروبي والصيغة التي لبستها الحركة القومية الاوروبية •

وهكذا ارتبطت الحركة القومية في اوروبا بمفاهيم واشكال فكرية واجتماعية مختلفة كانت دوما وليدة القرن او المرحلة التي عاشها هذا القطر الاوربي او ذاك •

اشكال محافظة

الذين يدرسون التاريخ الاوروبي الحديث يلاحظون ان الحركة القومية ـ من حيث هي سعي لتركيز وحدة الامة وسيادتها ـ اتخذت اول الامر شكلا ارستقراطيا محافظا اذ انها ترافقت مع مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي الاقتصادي والفكري في تاريخ اوروبا الحديث ، وهي مرحلة تهديم النظام الاقطاعي والانتفاض على سلطة الكنيسة •

في هذه المرحلة ترافقت يقظة الامة وشعورها بشخصيتها القومية المستقلة مع الصراع القائم بين الملوك « والطبقات الارستقراطية الحاكمة » من جهة وبين امراء الاقطاع والكنيسة من جهة اخرى •

كان الملك واعوانه يسعون الى تقليم اظافر السلطة الكنسية والقضاء على الاقطاعيات المرتبطة اسما بالملك والمستقلة فعلا عنه ، وذلك من اجل تركيز سلطتهم واكسابها مزيدا من المركزية • هذا السعي من قبل الملك واعوانه قابلته في الواقع ملامح اليقظة القومية الاولى الساعية هي ايضا الى مزيد من

المركزية ومزيد من الاستقلال عن « الامبراطورية المقدسة» •

هنا ظهر الملك والارستقراطية الحاكمة بمظهر العامل على ربط اجزاء الامة ـ او المملكة على الاصح ـ وتركيز السيادة القومية التي لم تكن تعني في الواقع سيادة الامة بل سيادة الملك المطلقة والارستقراطية التي تشاركه في الحكم •

وهكذا مضت فترة تعايش فيها السعي القومي مع هذه الملكية الارستقراطية حتى بدا وكأن هذه الارستقراطية المحافظة هي من طبيعة الحركة القومية •

واشكال ليبرالية ومثالية

هذه الحركة القومية الاوروبية التي ارتبطت اول الامر بمفاهيم ارستقراطية محافظة عادت تتخذ طابعا ليبراليا « ديمقراطيا » في فترات تاريخية اخرى وفي عدد من الاقطار الاوروبيه •

في الثورة الفرنسية ، التي اتت نتيجة تطورات فكرية واجتماعية اقتصادية ، ارتبطت الحركة القومية بقضية الحرية وفكرة كون الشعب مصدر السلطات والحقوق الطبيعية للفرد واصبح الطابع الارستقراطي الذي ميز الحركة القومية في المرحلة السابقة طابعا رجعيا لا تقره الليبرالية الجديدة •

وحين نكون في مجال استعراض الاثواب التي ارتدتها الحركة القومية الاوروبية اثناء تطورها لابد من المرور بعدد من المدارس الفكرية الفلسفية كان ابرزها وابعدها



اثرا على الحركة القومية فلسفة هيغل ثم فلسفة نيتشه فيما بعد •

بوحي من هده المدارس الفكرية الفلسفية اكتسبت القومية « مثالية غامضة » برزت البسماركية ثم النازية والفاشية فيما بعد •

هنا ، وعلى يد هذه المدارس ، تحولت الامة الى مثال فلسفي متحجر يخنق الصراع الاجتماعي الاصيل من اجل التقدم ، ويفتح له دروبا اخرى منحرفة تمثلت في الاستعلاء والعنصرية والتعصب وتبرير العدوان ونوع من عبادة الامة لذاتها •

في هذا النطاق بدت الحركة القومية وكأنها مرادفة لتجميد التطور الاجتماعي البشري الأصيل وخنقه باعطاء الدولة القومية صفات مثالية غيبية • ولقد كان هذا في الواقع هو اسوأ ثوب لبسته الحركة القومية الاوروبية عبر تطورها •

وهكذا نرى كيف تلازمت الحركةالقومية اثناء تطورها في اوروبا مع افكار ارستقراطية محافظة تارة ومع ليبرالية لم تعد قادرة على التعبير عن حاجات العصر طورا ومع مثالية فلسفية غامضة تارة اخرى •

هذا الذي تعاقب على القومية في اوروبا كان في الواقع وراء نشوء النظرة اللاقومية التي تبنتها الاشتراكية الكلاسيكية وماركس بالدرجة الاولى •

حرب فكرية على القومية

فحين بدت الحركة القومية وكأنها اداة في يد المحافظين او في يد « الليبرالية البورجوازية » و « المثاليين المتحجرين » ، وحين اصبحت هذه الحركة وكأنها تترادف مع « اللا تقدم » و « اللا تحرك » ، كل ذلك هيأ المناخ لاعلان الحرب الفكرية على هذه الحركة القومية واعتبارها مظهرا رجعيا ومحافظا في تاريخ التطور البشري •

ولقد حملت الاشتراكية الكلاسيكية ـ التي فلسفت التقدمية في القرن التاسع عشر ـ راية الحرب على القومية وذلك من خلال تصديها لتحليل الاوضاع الاوروبيةواكتشاف عوامل الجمود فيها •

فلقد كانت الاشتراكية الكلاسيكية في اوروبا استجابة لظروف اجتماعية جديدة خلقها التطور الصناعي الذي احدث انقلابا في حياة المجتمعات الاوروبية •

هذه الاشتركية ، التي مثلت الصيغة الاوروبية للتقدمية في ظروف اوضاع القرن التاسع عشر ، كان لابد من ان تتصدى للحركة القومية وتعلن منها موقفا • فكان ان اتخذ الموقفالاشتراكي الكلاسيكي من القومية صيغة تعتبر الحركة القومية جزءً من التركة الرجعية الثقيلة التي لا بد لاوروبا من التخلص منها اذا ارادت اكتشاف مجرى تقدمها الصحيح •

اعتبرت الاشتراكية الكلاسيكية ، الحركة القومية جزء من الموقف المحافظ او الموقف المثالي المتحجر الغامض او في أحسن الاحوال جزءا من الموقف الليبرالي « العاجز » •

ومن خلال نقدها للافكار والفلسفات « الرجعية » التي تلازمت مع الحركة القومية الاوروبية تباعا ، أرت الاشتراكية الكلاسيكية في الحركة القومية ظاهرة انحراف ووسيلة الهاء او سبيل تجميد • ولذلك اعلنت « ان العمال لا وطن لهم » وان قضية التقدم لا ارض لها وانه ينبغي الكفاح ضد جميع النزاعات القومية •

هذا الموقف اللا قومي الذي اصبح جزءا من الموقف التقدمي بالنسبة للاشتراكية الكلاسيكية عاد ليتأكد في مستهل القرن العشرين ويكتسب مزيدا من «المبررات» حين جسدت النازية والفاشية اقصى مراحل الانحراف القومي واعلى درجاته •

الثغرة الكبرى

وفي هذا القرن ـ اي القرن العشرين ـ لم تعد مقارعة المفاهيم القومية وقفا على الاشتراكيين الكلاسيكيين ، بل ان اعتبار الحركة القومية ظاهرة انحراف يجب التخلص منها بدأ وكأنه تحول ـ في الغرب ـ الى موقف تمليه الافكار التقدمية والانسانية ايا كانت •

وبعد ، فهل كانت الاشتراكية الكلاسيكية على حق ، حين رأت في الحركة القومية ـ اية حركة قومية ـ ظاهرة انحراف عن دروب التطور الاجتماعي الاصيل ، وحين حكمت على هذه الحركة القومية بانها في جوهرها حركة محافظة وبان بينها وبين التقدمية طلاق ؟

وهل يجوز الاستمرار في الحكم على الحركة القومية الجديدة ، وفي البلدان الناهضة حديثا على الاخص ، من خلال منطق اوروبي تدعمه وقائع تاريخية لا يمكن اعتبارها عامة ومطلقة في الزمان والمكان ؟

وهل مجرد تأثر الحركة القومية في اوروبا باوضاع العصر الذي وجدت فيه يجعل من محتوى ذلك التأثر ضرورة لازمة في كل حركة قومية ؟

هنا تكمن الثغرة في المنطق الذي ينكر امكان حصول التزاوج العميق بين الحركة القومية وبين التقدمية الاجتماعية الانسانية في صيغتها الحديثة ، هذا التزاوج الذي تسير الحركة القومية في اسيا وافريقيا اليوم في طريقه .

التطورات الجديدة في المفهوم القومي الحديث

هل القومية في جوهرها حركة محافظة ؟ هل هناك تلازم عضوي بين بعض الاشكال التي ظهرت فيها الحركة القومية في التاريخ وبين القومية ؟.

على هذه التساؤلات يجيب البعض بـ « نعم » من خلال استقراء وقائع التاريخ الاوربي الحديث •

ولكن هذه الـ«نعم» تنطوي في الواقع على خطأ كبير • ذلك ان حقيقة واحدة تستطيع ان تقدمها لنا وقائع التاريخ الاوروبي الحديث هي ان الحركة القومية في أي مجتمع من المجتمعات لابد ان تتأثر بنمط التفكير السائد وبالوضع الاجتماعي والاقتصادي القائم وبدرجة التطور التاريخي الذي توصل له هذا المجتمع •

ولذلك لم تكتسب الحركة القومية شكلا واحدا عبر التاريخ بل انها ظهرت حينا بمظهر ارستقراطي محافظ كما ظهرت حينا بمظهر ليبرالي واضح وارتدت احيانا اثوابا مثالية تمجد الدولة القومية وتتعبد لها وتبرر الفتح والعدوان باسم « الرسالة العنصرية » •• كما انها تتخذ اليوم اشكالا اخرى مختلفة تماما ••

وهذا كله يثبت ان الحركة القومية لم ترتبط تاريخيا وحتى الان بمذهب فكري او فهم اجتماعي اقتصادي واحد يصح معه القول ان هذا الفهم الاجتماعي الاقتصادي او ذلك المذهب الفكري يعادل جوهر القومية ذاتها ••

الا انه وراء الاختلاف في الاشكال التي تلبستها الحركة القومية في التاريخ تكمن حقيقة واحدة مشتركة هي شعور الامة بوجودها الثقافي والتاريخي والاقتصادي والاجتماعي الخاص ورغبتها في الوحدة والاستقلال •

هذه هي الحقيقة الاولية في القومية او فلنقل هذا هو « البناء التحتي » على حد التعبير الماركسي ٠

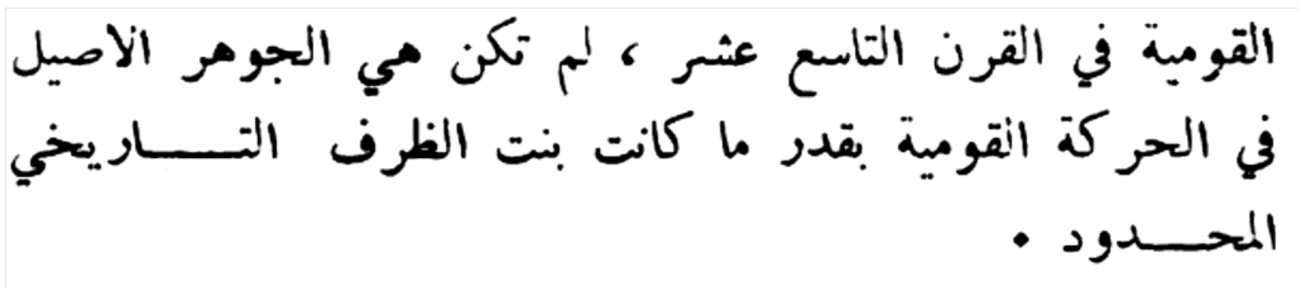
وعلى هذا « البناء التحتي » كانت تتراكم « ابنية فوقية » فلسفية واجتماعية شكلت ما يسمى بمحتوى الحركة القومية ولكن « الابنية الفوقية » لم تكن واحدة في جميع الحركات القومية وفي كل المراحل التاريخية التي مرت بها هذه الحركات القومية اثناء تطورها ٠

خطأ الاشتراكية الكلاسيكية

وهنا يكمن في الواقع خطأ الاشتراكية الكلاسيكية – اشتراكية القرن التاسع عشر – التي لم تميز بين العناصر الاولية في الحركة القومية ، وهي شعور الامة بوجودها المتميز ورغبتها في الوحدة والاستقلال ، وبين العناصر المكتسبة المعبرة عن نمط التفكير السائد ودرجة التطور القائمة ٠

ولذلك وقعت الاشتراكية الكلاسيكية في مزلق كبير حين مثلت ارتدادا فكريا على العناصر الاولية والمكتسبة في الحركة القومية على حد سواء ٠

والذي لم تدركه الاشتراكية الكلاسيكية – بحكم محدودية تجربتها التاريخية – هو ان ما اصطدمت به من امتدادات لا انسانية ومحتويات لا تقدمية ارتبطت بها الحركة



القومية في القرن التاسع عشر ، لم تكن هي الجوهر الاصيل في الحركة القومية بقدر ما كانت بنت الظرف التاريخي المحدود .

وحين ارتدت الاشتراكية الكلاسيكية لا على ما مثلته الحركة القومية في القرن التاسع عشر من عنصرية وتعصب ورجعية اجتماعية ومثالية فارغة فقط ، بل وعلى الواقع الاجتماعي القومي للعالم ، وضعت نفسها في مواجهة حقائق اجتماعية اثبت الزمن فيما بعد رسوخها وثباتها .

الامية التي طرحتها الاشتراكية الكلاسيكية مقابل الانحراف القومي الذي اصطدمت به ، هذه الامية لم تستطع ان تبرر نفسها لفترة طويلة وسرعان ما اتضح عجزها التام عن ايقاف مد القومية كواقع تاريخي واجتماعي

والقفز فوق الواقع القومي الذي دعت له الاشتراكية الكلاسيكية حين تصدت لمعالجة القضية الاجتماعية الانسانية سرعان ما اتضح انه قفز في الهواء ولا بد ان ينتهي بالعودة الى الارض الصلبة ، الى الوحدات القومية لاستيحاء ظروف كل منها ومميزاته والعمل ضمن نطاقها الوجودي المستقل .

ومقابل الامية المتخطية للحقيقة الاجتماعية الانسانية القائلة بعالم قسمه التطور الى امم مختلفة ، نشأت «الانسانية» التي تؤكد هذه الحقيقة الاجتماعية ولكنها تمثل في الوقت نفسه ارتدادا عن افكار العنصرية والتعصب « ورسالات التمدين » وتبرير الاستعمار التي كانت مظهرا مشوها مكتسبا في الحركة القومية .

ومقابل التصدي للقضية الاجتماعية قضية التقدم البشري ، من خلال القفز فوق الواقع القومي باسم التقدمية نشأت التقدمية التي تتعايش مع الواقع القومي وتتزاوج معه وتكسبه محتوى جديدا هو نقيض المحافظة والليبرالية التقليدية والمثالية الفارغة .

ومن خلال اكتساب الامتداد الانساني والبعد الاجتماعي التقدمي اثبتت الحركة القومية قدرتها على تصحيح نفسها ، كما اثبتت ان العناصر الاولية فيها ، شعور الامة بوجودها الثقافي والتاريخي والاقتصادي والاجتماعي الخاص ورغبتها في الوحدة والاستقلال ، ان هذه العناصر الاولية هي عناصر اصيلة لا يمكن طمسها كما انها قابلة للارتباط بمحتوى تقدمي وانساني اذا ما توفرت الظروف التاريخية الملائمة .

هذا التطور التاريخي الذي مارسته الحركة القومية يهدم وجهة النظر التي لا تريد ان تصدق « حكاية » التقدمية في الحركة القومية الحديثة .

ميدان التطور الجديد

هذا التطور التاريخي في فهم الحركة القومية لم تنحصر حدوده في الواقع ضمن القارتين الاسيوية والافريقية بل انه فرض نفسه على احزاب اشتراكية اوروبية كما فرض نفسه بشكل ما حتى على المجتمعات التي يؤكد قادتها انها سائرة في طريق الشيوعية .

يقول احد الكتاب الاشتراكيين الفرنسيين في كتاب له يبحث في « الطرق الجديدة الى الاشتراكية » :

« لا نستطيع ان نتجاهل طريقة تفكير جديدة في البحث الاشتراكي : في زمن ماركس وروز الوكسمبورغ وفي زمن جو ريس ولينين ، كانت القضايا الاشتراكية تطرح من خلال مظاهرها العالمية العامة ، والمميزات القومية الداخلة في صلب التكتيك والاستراتيجية الاشتراكية كانت تعالج من خلال اخضاعها لاعتبارات اممية ، اما في وقتنا هذا ، فان كل حزب اشتراكي يبدو مهتما في الاساس باوضاعه القومية الخاصة ، وراغبا في الدرجة الاولى بمنع تدخل اشتراكي البلدان الاخرى ، ليس فقط في مقرراته ومخططاته بل وفي مناقشاته ايضا ، كل حزب اصبح يلح بشكل واضح على المميزات الخاصة والقومية المستقلة لنهجه الاشتراكي ، والتيارات الاكثر تقدمية ـ في بولونيا والمجر مثلا ـ اصبحت تعلن عن نفسها من خلال تعبير : الشيوعية القومية .

وليست بعيدة عنا قرارات المؤتمرات الشيوعية الاخيرة بالاعتراف « باختلاف الطرق الموصلة الى الاشتراكية » والتي اضطرت الى الانحناء ظاهريا على الاقل للاعتبارات الاصيلة التي فرضتها الحركة القومية بعد تطورها التاريخي في هذا القرن .

الا ان الحركة القومية الحديثة بالرغم من استطاعتها

فرض نفسها ـ بدرجات متفاوته ـ على النزعات التقدمية في اوروبا ، لم تتمكن ـ في اوروبا ـ من التحرر من تراثها الطويل في نظر معارضيها والقائلين بها على حد سواء ، لقد ترك هذا التراث آثاره البعيدة في الفكر السياسى والاجتماعي الحديث في الغرب ولم تتمكن معه الحركة القومية من تقديم نفسها بشكل جديد •

ومن هنا كان الدور الخاص الذي تقوم به الحركة القومية الحديثة في اسيا وافريقيا من حيث تقديمها لنموذج قومي جديد يؤكد على العناصر الاولية الاصيلة في الحركة القومية ـ من حيث هي شعور بالوجود القومي الخاص ورغبة في الوحدة والاستقلال ـ بقدر ما يؤكد فيه على ضرورة اكتساب هذه العناصر محتوى تقدميا انسانيا وعلى استطاعة الحركة القومية اكتساب مثل هذا المحتوى •

مرحلة كان لابد منها

الا ان الحركة القومية بمضامينها الحديثة في اسيا وافريقيا ـ وفي بلادنا على الاخص ـ مرت في الواقع بمرحلة كان لابد منها اثناء تطورها الحديث •

المرحلة الاولية هذه اتسمت بطابع لا يمكن تصنيفه ضمن الاتجاهات والخطوط التقدمية •

لقد مرت مرحلة تأثرت فيها الحركة القومية في بلادنا بالنظريات والمفاهيم التي رافقت نشوء الحركة القومية في اوروبا وتطورها • وشهد وطننا احزابا حاولت ان تنسج على منوال النازية والفاشية ، ومحاولات فكرية وسياسية راحت



تستوحي تعاليم بعض المفكرين ممن فلسفوا انحرافات القومية وضسروها •

ومرت الحركة القومية في بلادنا بمرحلة عزلت فيها تقريبا عن حركة التقدم الاجتماعي الصاعد ولم تتمكن من استيعابها وهضمها وصهرها •

وبكلمة ، تعرضت الحركة القومية في بلادنا عند انطلاقها – بوعي او دون وعي – الى المزالق ذاتها التي نعتبرها اليوم مظاهر انحراف عن الخط القومي الصحيح كما نفهمه •

وكان منطقيا في الواقع ان تمر الحركة القومية حتى في بلدان اسيا وافريقيا بمثل هذه المرحلة •

ذلك انه من الطبيعي ان تحاول كل امة مستيقظة على واقعها القومي حديثا ان تستلهم من التاريخ دروسا وعبرا ، ومن الطبيعي ان تمثل اوروبا التي سبقت بتطورها القومي جميع اجزاء العالم المعين الاول لاستيحاء التجارب والافكار والنظريات القومية •

وهكذا عكف رواد الحركة القومية ومفكروها الاوائل في بلادنا على دراسة النهضة القومية في اوروبا في اطار من الاعجاب بهذه المجتمعات التي سبقتنا في ميدان التطور بمراحل بعيدة •

وكما يعكف بعض الاشتراكيين في بلادنا اليوم على دراسة الاشتراكية الكلاسيكية ثم يفهمون الاشتراكية من خلال الصيغة التي ظهرت بها في القرن التاسع عشر دونما

تنبه للتطورات البعيدة التي اصابت الفكر الاشتراكي ، كذلك عكف « القوميون الاوائل » في بلادنا على دراسة النظريـــات القومية الاوروبية الاولى ثم فهموا القومية من خلالها •

ومما عزز هذا التأثر بالافكار القومية ـ التي تعتبر فـــي مفهومنا الحديث انحرافا عن القومية ـ كون الفترة التـــي استيقظ فيها وطننا على واقعه القومي ترافقت مع ازدهار هذه الافكار القومية في ايطاليا والمانيا •

يضاف الى كل ذلك انه كان من الطبيعي ان تتســـم يقظتنا القومية الاولى بنوع من « التطرف » صادر عن الرغبة في تأكيد الوجود القومي المستقل وتوضيحه •

الا ان الحركة القومية في بلادنا ـ وفي اسيا وافريقيا ـ سرعان ما تخطت هذه المرحلة لتقدم نفسها بشكل جديد •

ولم يكن ذلك بفعل المصادفة بل كان نتيجة الظـروف التاريخية الخاصة التي نمر بها والتي يمر بها العالم •

التحول في المفهوم القومي الحديث

في هذا الجزء الأخير من هذه الدراسة للحركة القومية الحديثة نود ان نتناول الظروف والعوامل التي جعلت الحركة القومية في آسيا وافريقيا تتميز بهذا الفهم الانساني التقـدمي للقومية •

فليس من قبيل الصدفة ان يرتبط المفهوم القومي فـــي القارتين الاسيوية والافريقية بهذا الاتجاه الجديد الذي عـاد حركة القومية الى نطاقها الطبيعي والسليم وليس من قبيـــل

« الاجتهاد » المجرد عن العوامل والظروف ان تتميز الحركة القومية في بلادنا ـ وفي البلدان التي تتشابه اوضاعها مع أوضاعنا ـ بالميزات التي تحدثنا عنها •

فلو لم تتوفر لهذه الحركة القومية ظروف تاريخية واوضاع خاصة لما امكننا التأكيد بانها ستسلك الطريق الذي تسلكه اليوم •

ذلك ان حركات قومية اخرى قد سلكت في التاريخ دروبا مغايرة وكان سلوكها ذاك مرتبطا في الاساس بالظروف التاريخية والخاصة التي كانت قائمة •

ربطنا هذا بين طبيعة التحول الذي احدثته الحركة القومية الحديثة على المفهوم القومي وبين الظروف التاريخية والاوضاع الخاصة لا ينقص من قيمة التحول شيئا • بل انه يعني ان لهذا التحول جذورا ضاربة في اعماق المرحلة التاريخية التي يعيشها العالم اليوم وفي اعماق الظروف الخاصة التي تعيشها الامم الناهضة حديثا •

فما هي تلك الظروف التاريخية وهذه الاوضاع الخاصة التي اكسبت الحركة القومية ميزات قصرت عن اكتسابها حركات قومية اخرى في التاريخ ؟

منطق العصر

لقد كان لتأخر التطور القومي في هذا الجزء من العالم الاثر الاكبر في طبع تطوره القومي بالميزات التي عنها تحدثنا •

أتى التطور القومي في بلادنا ـ وفي اسيا وافريقيا ـ بعد سلسلة من التجارب القومية الطويلة التي بلورت مجموعة من الحقائق كان للحركة القومية الحديثة فضل استيعابها والتوجه من خلالها •

لكل عصر منطقه التقدمي ولكل حقبة من التاريخ ملامحها الفكرية العامة • ولقد كانت الحركة القومية عند نشوئها مرادفة لمنطق لم يعد في مفهوم هذا القرن ـ القرن العشرين ـ حائزا على صفة التقدمية •

ملامح المستقبل في هذا العصر كلها تشير الى ان العالم سائر في طريق نبذ خرافات العنصرية والغرور القومي والطبقية بين الامم وسلب حريات الشعوب وحقوقها ، وفي طريق مساواة تامة بين امم العالم كافة واحترام متبادل بين الشعوب وسلام بين البشر •

هذه المبادىء التي تحقق كل يوم مزيدا من التقدم ومزيدا من الوضوح اصبحت هي المبادىء السائدة في دنيا الافكار والمبادىء في هذا القرن •

والعالم الذي يسير اليوم حثيثا في طريق اكتشاف هذا الطريق ، والذي تتمهد امامه الطريق بقدر ما تحقق قوى الحرية والعدالة والسلام من انتصارات ، العالم لم يقف على عتبة هذه المرحلة الجديدة ، الا بعد ان قطع رحلة طويلة وشاقة تخللتها آلام ومآسي وعانت منها البشرية الكثير •

ولقد عاش القرن العشرون ربما اضخم مأساة في هذه الرحلة الطويلة ، تلك هي مأساة الديكتاتوريات النازية والفاشية التي جسدت اعلى مراحل العنصرية والتعصب القومي والعدوان والتي لم تنته قبل ان تقود العالم كله الى مأساة زرعت الدمار في حرب عالمية كانت اقسى ما شهده الانسان •

بعد كل هذا كان لا بد من ان تبدأ في النمو قوى جديدة تحمل على عاتقها رسم طريق آخر لخلاص هذا العالم من حروبه وآلامه ونزاعات التعصب القومي الذي يسوده •

ولم تعد تلك النظريات والافكار والفلسفات التي انحرفت بالقومية في دروب لا انسانية ، لم تعد قادرة على الصمود في الميدان او على تبرير نفسها فكريا واجتماعيا •

واصبحنا نقرأ باستغراب افكار اولئك الذين هدروا القيم الانسانية واعتدوا على الحق والعدالة والحرية والمساواة ، باسم الامة ، و « مجد » للامة موهوم ، وعبادة لمطلقات مصطنعة مفتعلة وقفت ردحا طويلا في طريق التقدم الاصيل •

قلنا كان لابد من ان تبدأ في النمو قوى جديدة تفهم الواقع القومي في العالم على النحو الذي يجب ان يفهم •

وكان لا بد بعد التطورات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي مر بها العالم الحديث ، وبعد حقبات طوال من التجارب والمآسي ، كان لا بد من ان يتكون لهذا العصر « منطق » قومي جديد يفهم الامور فهما مغايرا عما كان •

وهنا كان المحركة القومية في البلدان الناهضة دور بارز في صياغة هذا «المنطق» القومي الجديد •

ذلك ان الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا هي بنت القرن العشرين بنت افكاره وتجاربه وحقائقه •••

والحركة القومية الحديثة التي نشأت في جو فكري واجتماعي انساني سلط الاضواء على جوانب الانحراف في الحركة القومية اثناء تطورها عبر التاريخ • هذه الحركة القومية الحديثة كان لا بد من ان تنهج نهجا جديدا يفيد من تجارب الماحي وعبره وينسجم مع المبادىء التي يسير باتجاهها العصر •

ميزة الحركة القومية عندناكونها أتت لاحقة للانحرافات التي تميز بها التطور القومي في الغرب ، لا سابقة عليها ، ولذلك كانت الحركة القومية عندنا بطبيعة نشأتها الزمانية والمكانية ـ مؤهلة للاضطلاع بمهنتين : تحقيق النهضة في الطريق السليم الذي اكدته تجارب التاريخ ورسم معالمه « منطق » العصر من ناحية ثانية •

ولم تكن الحركة القومية في بلادنا ـ وفي اسيا وافريقيا ـ مضطرة الى ان تبدأ الرحلة من اولها لتكتشف عناصرها الاصلية اخيرا وتلتزم حدودها التقدمية الانسانية • بل لقد تجوهرت منذ البداية بجوهرها الصحيح •

تلك حقيقة اساسية وهامة يجب ان لا تغيب عن الاذهان : كون الحركة القومية الحديثة في اتجاهاتها الفكرية الانسانية وليدة افكار وتطورات العصر الحديث •

ومنطق الاوضاع الخاصة

والى منطق العصر الحديث الذي تسوده افكار الانسانية والاشتراكية والتقدمية وحقوق الانسان ، ومبادىء العدالة والمساواة والحرية ، الى هذا ينبغي ان نضيف ان لمنطق الاوضاع الخاصة التي نعيشها نحن كعرب وتعيشها معناالشعوب الناهضة حديثا اثرا بارزا في تشكيل الحركة القومية على هذا المنحى التقدمي .

الحركة القومية في بلادنا كانت احد مظاهر اليقظة الشاملة التي سرت في جسم امتنا والتي دفعتها الى الثورة على واقعها المتخلف .

الحركة القومية في البلدان الناهضة حديثا كانت جزءا من الحركة التاريخية العامة التي تنتظم هذه البلدان ، والهادفة الى التخلص من الاستعمار والظلم الداخلي والخارجي والى تكريس حقوق الامة وحقوق الانسان وتحقيق النهضةوالعدالة والمساواة ...

الحركة القومية هنا هي اذن جزء من حركة التقدم الشاملة التي تجتاح هذا الجزء من العالم .

وحركة التقدم الشاملة في هذا الجزء من العالم ليست فقط حركة تصنيع وتنمية وتقدم علمى ، انها قبل كل ذلك وفوق كل ذلك حركة المبادىء والافكار التي بلورت صيغة التقدمية في هذا العصر .

حركة التقدم الشاملة في هذا الجزء من العالم هي حركة الجماهير الساعية في طريق هدم التخلف والاستغلال

والاستثمار والظلم الاجتماعي .

ولقد كان من الطبيعي ان تكتسب الحركة القومية في هذه البلدان - وهي التي طرحت نفسها من خلال ثورة التقدم الشاملة - امتدادات ومعاني وقواعد فكرية عمقت التزامها للفهم التقدمي لقضية الانسان وازالت عنها كل ما علقت بها من شوائب .

ان هذا الترافق بين النهضة القومية وبين النهضة الاجتماعية التقدمية التي تلهب اليوم اسيا وافريقيا ، كان عاملا فعالا لبلورة الاسس الحديثة للقومية التي عنها تحدثنا .

لقد اكتشفت الحركة القومية الحديثة حدودها الاصيلة حين ادخلت نفسها في اتون هذه الثورة التاريخية التي يبحث من خلالها انساننا عن مصيره الافضل .

وهكذا كان للظروف الزمانية -ظروف القرن العشرين- والظروف المكانية - ظروف اسيا وافريقيا - الاثر الاكبر في اخراج حركة قومية لم يعرف التاريخ شبيها لها .

رسالة الى العالم

وبعد كل هذا فالحركة القومية الحديثة ليست جديرة فقط بان تقدم الحل لهذه الامم المتخلفة التي بدأت تسير في طريق الحرية ، انها جديدة بتأدية رسالة لهذا العالم الذي طال بحثه عن طريق للاستقرار والسلام .

ان الحركة القومية الحديثة من حيث هي دعوة للمساواة

دراسات في القومية العربية

بين الامم والحرية لكل الشعوب ومن حيث سعيها لتقويض الاستعمار وجميع مظاهر التسلط الدولى ومن حيث مناداتها بالسلام المؤسس على العدل ، ان الحركة القومية بصفاتها هذه تقدم ملامح الحل لما يعانيه عالم اليوم من قلق واضطراب

والحركة القومية الحديثة لا تكتب اليوم تاريخ اسيا وافريقيا فقط ، انها تكتب حيزا كبيرا .. من تاريخ الانسانية.

محسن ابراهيم

اصدار النادى الثقافى العربى

بغـــداد

١٩٦١